عبوديته -صلى الله عليه وسلم- شرف وفضيلة،

(4) عبوديته -صلى الله عليه وسلم- شرف وفضيلة، فقد ثبت في الصحيحين عن عمر -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: { لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله } رواه البخاري برقم 3445. ، يقول الشيخ سليمان بن عبد الله -رحمه الله- على هذا الحديث في شرح التوحيد ص272: قوله: { إنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله } ؛ أي: لا تمدحوني فتغلوا في مدحي كما غلت النصارى في عيسى فادعوا فيه الربوبية، وإنما أنا عبد الله فصفوني بذلك كما وصفني به ربي، وقولوا: عبد الله ورسوله، فأبى عباد القبور إلا مخالفة لأمره وارتكابا لنهيه، وناقضوه أعظم المناقضة، وظنوا أنهم إذا وصفوه بأنه عبد الله ورسوله، وأنه لا يُدعى ولا يستعان به، ولا ينذر له، ولا يطاف بحجرته، وأنه ليس له من الأمر شيء، ولا يعلم من الغيب إلا ما علمه الله؛ أن في ذلك هضما لجنابه، وغضا من قدره؛ فرفعوه فوق منزلته، وادعوا فيه ما ادعت النصارى في عيسى أو قريبا منه، فسألوه مغفرة الذنوب، وتفريج الكروب. وقد ذكر شيخ الإسلام في كتاب (الاستغاثة) عن بعض أهل زمانه أنه جوز الاستغاثة بالرسول صلى الله عليه وسلم في كل ما يستغاث فيه بالله وصنف فيه مصنفا . وكان يقول: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- يعلم مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا الله. وحكي عن آخر من جنسه يباشر التدريس، وينصب إلى الفتيا أنه كان يقول: إن النبي - صلى الله عليه وسلم - يعلم ما يعلمه الله، ويقدر على ما يقدر الله عليه، وأن هذا السر انتقل بعده إلى الحسن ثم انتقل إلى ذرية الحسن إلى أبي الحسن الشاذلي، وقالوا: هذا مقام القطب الغوث الفرد الجامع، ومن هؤلاء من يقول في قول الله تعالى: { وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا } إن الرسول -صلى الله عليه وسلم- هو الذي يسبح بكرة وأصيلا ، ومنهم من يقول: نحن نعبد الله ورسوله، فيجعلون الرسول معبودا، قلت: وقال البوصيري: فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم فجعل الدنيا والآخرة من جوده، وجزم بأنه يعلم ما في اللوح المحفوظ، وهذا هو الذي حكاه شيخ الإسلام عن ذلك المدرس، وكل ذلك كفر صريح، ومن العجب أن الشيطان أظهر لهم ذلك في صورة محبته -عليه السلام- وتعظيمه ومتابعته، وهذا شأن اللعين لا بد وأن يمزج الحق بالباطل ليروج على أشباه الأنعام أتباع كل ناعق ، الذين لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق، لأن هذا ليس بتعظيم ، فإن التعظيم محله القلب واللسان والجوارح، وهم أبعد الناس منه؛ فإن التعظيم بالقلب ما يتبع اعتقاد كونه عبدا رسولا، من تقديم محبته على النفس والولد والوالد والناس أجمعين، ويصدق هذه المحبة أمران: أحدهما : تجريد التوحيد، فإنه -صلى الله عليه وسلم- كان أحرص الخلق على تجريده، حتى قطع أسباب الشرك ووسائله من جميع الجهات، حتى قال له رجل: { ما شاء الله وشئت . قال: أجعلتني لله ندا؟ بل ما شاء الله وحده } رواه أحمد كما في المسند 1/214، 282 عن ابن عباس وصححه المحقق. ، ونهى أن يحلف بغير الله وأخبر أن ذلك شرك، ونهى أن يصلي إلى القبر أو يتخذه مسجدا أو عيدا ، أو يوقد عليه سراج، بل مدار دينه على هذا الأصل الذي هو قطب رحا النجاة، ولم يقرر أحد ما قرره -صلى الله عليه وسلم- بقوله وفعله، وسد الذرائع المنافية له، فتعظيمه -صلى الله عليه وسلم- بموافقته على ذلك لا بمناقضته فيه. الثاني : تجريد متابعته وتحكيمه وحده في الدقيق والجليل من أصول الدين وفروعه، والرضى بحكمه والانقياد له والتسليم، والإعراض عما خالفه ، وعدم الالتفات إلى ما خالفه، حتى يكون وحده هو الحاكم المتبع المقبول قوله، المردود ما خالفه، كما كان ربه -تعالى- وحده هو المعبود المألوه الخالق المستغاث به، المتوكل عليه الذي إليه الرغبة والرهبة، الذي يؤمل وحده لكشف الشدائد ومغفرة الذنوب، الذي من جوده الدنيا والآخرة، الذي خلق الخلق وحده، ورزقهم وحده ، ويبعثهم وحده، ويغفر ويرحم ويهدي ويضل، ويسعد ويشقي وحده، وليس لغيره من الأمر شيء كائنا من كان ، لا النبي -صلى الله عليه وسلم- ولا جبريل -عليه السلام- ولا غيرهما. فهذا هو التعظيم الحق المطابق لحال المعظَّم، النافع للمعظِّم في معاشه ومعاده، والذي هو لازم إيمانه وملزومه. وأما التعظيم باللسان فهو الثناء عليه بما هو أهله مما أثنى به عليه ربه وأثنى على نفسه من غير غلو ولا تقصير، كما فعل عباد القبور؛ فإنهم غلوا في مدحه إلى الغاية، وأما التعظيم بالجوارح فهو العمل بطاعته، والسعي في إظهار دينه، ونصر ما جاء به، وجهاد ما خالفه. وبالجملة فالتعظيم النافع هو التصديق فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانتهاء عما عنه نهى وزجر، والموالاة والمعاداة والحب والبغض لأجله، وتحكيمه وحده، والرضى بحكمه، وأن لا يتخذ من دونه طاغوت يكون التحاكم إلي أقواله، فما وافقها من قوله -صلى الله عليه وسلم- قَبِلَه، وما خالفها رده أو تأوله أو أعرض عنه، والله -سبحانه- يشهد وكفى به شهيدا وملائكته ورسله وأولياؤه، أن عباد القبور وخصوم الموحدين ليسوا كذلك، والله المستعان. هذا كلام الشيخ -رحمه الله- وقد حكى ما شاهده في زمانه وقبله من أقوام جهلة بالتوحيد، ادعوا محبة النبي -صلى الله عليه وسلم- فبالغوا في مدحه، حتى وصفوه بما لا يستحقه إلا الله -تعالى- من الملك والعلم والتصرف، وحتى صرفوا له خالص حق الله -عز وجل- من الدعاء والرجاء وتفويض الأمور إليه والاعتماد عليه، وقد ذكر -رحمه الله- في شرح التوحيد ص186 وما بعدها بعض ما قال أهل الغلو والإطراء في حقه -صلى الله عليه وسلم- وأورد أبياتا من قصيدة البردة للبوصيري كقوله: يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم وما بعدها من الأبيات، ثم بين ما فيها من الشرك الصريح، وذكر أيضا بعضا من شعر البرعي الذي بالغ فيه وغلا، ووقع في عبادة الرسول -صلى الله عليه وسلم- صريحا، ونسى ربه -عز وجل- وهكذا ذكر النعمي في (معارج الألباب ص196) وما بعدها بعض أقوال الغلاة ومبالغتهم في التعلق بالأموات، ومن ذلك أبيات شعر تتضمن الشرك الواضح بالنبي -صلى الله عليه وسلم- وأولها قوله: يا سيدي يا صفي الدين يا سنـدي يا عمدتي بل ويا ذخري ومفتخري أنت الملاذ لما أخشى ضرورتــه وأنت لي ملجأ من حادث الدهــر إلى آخر تلك الأبيات الشركية، وعلق عليها -رحمه الله- يقول: فلا ندري أي معنى اختص به الخالق بعد هذه المنزلة، من كيفية مطلب، أو تحصيل مأرب، وماذا أبقى هذا المشرك الخبيث من الأمر، فإن المشركين أهل الأوثان ما يؤهلون كل ما عبدوه من دون الله لشيء من هذا ولا لما هو أقل منه. ا.هـ. ولقد كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يخاف على أمته من هذا الغلو ويحذرهم من أسبابه، فقد روى أبو داود بسند جيد عن عبد الله بن الشخير -رضي الله عنه- قال: { انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقلنا: أنت سيدنا. فقال: السيد الله تبارك وتعالى. قلنا: وأفضلنا فضلا وأعظمنا طولا، فقال: قولوا بقولكم أو بعض قولكم } هو في سنن أبي داود برقم 4806. . وعن أنس -رضي الله- عنه { أن أناسا قالوا: يا رسول الله، يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا. فقال: يا أيها الناس، قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد عبد الله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل } . [رواه النسائي بسند جيد] هو في عمل اليوم والليلة برقم 249 وكذا رواه أحمد 3/249 وغيره. . وهذا كثير في السنة، كقوله -صلى الله عليه وسلم- { إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله } رواه الطبراني ذكره في مجمع الزوائد 10/159 قال: ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث. . وتقدم أنه -صلى الله عليه وسلم- قال له رجل: { ما شاء الله وشئت. فقال: أجعلتني لله مثلا، ما شاء الله وحده } سبق أنه عند أحمد في المسند 1/214. ؛ فالنبي -صلى الله عليه وسلم- هو سيد الخلق وأفضلهم وخيرهم، لكنه يكره المدح سيما أمام الممدوح، حتى قال: { إذا لقيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب } رواه مسلم هو في صحيحه 18/128 عن المقداد رضي الله عنه. ؛ وما ذاك إلا أن المدح قد يوقع الممدوح في الإعجاب والكبرياء التي تحبط الأعمال أو تنافي كمال التوحيد، وقد افتخر -عليه الصلاة والسلام- بالعبودية لربه، وهي الذل والتواضع له، وذلك شرف وفضيلة؛ ولذلك ذكره الله باسم العبد في قوله -تعالى- { وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا } . وفي قوله: { سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ } وقوله -تعالى- { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ } وقوله: { وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ } . فإن العبودية لله -تعالى- تقتضي غاية الذل وغاية المحبة؛ فالتذلل لله -تعالى- يستدعي الخضوع والخشية والاستكانة لله تعالى، وأن يرى نفسه حقيرا ذميما مقصرا في واجبه، فيرجع إلى نفسه بالمعاتبة، ويعترف لربه بالفضل والإنعام، وكذلك الحب يستدعي محبة ما يحبه الله وكراهة ما يكرهه من الأقوال والأفعال والإرادات، فظهر بذلك كمال صفة العبودية لرب الأرباب.